

أسوار مدينة عدن

م. هيفاء عبد القادر مكاوي

مدرس الآثار والحضارة الإسلامية- قسم الآثار- كلية الآداب - جامعة عدن

Haifa.mackawee@hotmail.com

ملخص

اشتهرت عدة مدن في العالم القديم كموانئ، نتيجة لوقوعها على طرق الملاحة البحرية، والتي تمر بها السفن المحملة ببضائع الشرق. وعدن هي واحدة من تلك الموانئ التي اشتهرت قديماً كونها محطة يقف عندها التجار في رحلاتهم ما بين الهند ومصر، وسواحل أفريقيا؛ فهي مدينة وميناء قديم منذ زمن قديم تميزت بنشاط تجاري، وكان سوقها من أشهر الأسواق.

وقد ساعد الموقع الذي تتمتع به المدينة فيما وصلت إليه من مكانة، فهي تتحكم بالمدخل الجنوبي للبحر الأحمر، إلى جانب ما تميز به ميناؤها من القدرة على استقبال السفن التجارية على مدار السنة، فهو مكان آمن للسفن لأنه محمي طبيعياً بجباله، وبجزيرة صيرة من الرياح الموسمية التي تهب عليه في الصيف، أو في الشتاء، فاستقطب التجار من الشرق والغرب فكان سوقاً رائجاً للبيع والشراء وللتبادل التجاري.

وكانت عدن محطة أنظار التجار الذين يمرون بها في سفرهم، إلى جانب الطامعين في الحصول على الميناء، والاستثمار بالدخل الكبير الذي يجنيه حكام عدن من الضرائب، والرسوم التجارية المفروضة على التجار، وللسيطرة على حركة التجارة البحرية العالمية، وهذا هو السبب الرئيس في تحصينها بالعديد من المنشآت الدفاعية لجعلها قادرة على الوقوف أمام هذه المحاولات.

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على جزء من آثار مدينة عدن وتوثيقها والتعريف بها وبالإحداث التاريخية التي دارت حولها.

كلمات مفتاحية: عدن- أسوار- سوربحري- أبراج- قلاع- بوابات.

1. المقدمة:

عدن مدينة قديمة، تمتعت بموقع استراتيجي هام، كان له الفضل في تميزها، وشهرتها دون مدن أخرى في اليمن، فكانت محطة للتجار، والوسيط التجاري للبضائع القادمة من مصر، والهند، والصين، وأفريقيا، كما سكن بها تجار من كل حدب وصوب، فكانت متاع السند، والهند، والصين، والزنج، والحبشة، وفارس، والبصرة، وجدة، والقلزم، ويعد سوقها من أشهر الأسواق، كانت فرضة كل اليمن، وخزانة مال ملوكها.

وقد حرصت الدول اليمنية على أن تكون عدن تحت سيطرتها، نظراً للدخل الكبير الذي يجنوه من ميناؤها؛ نتيجة لتحصيل الضرائب الجمركية، والذي يمثل أكبر المبالغ التي تصل إليهم من بقية الموانئ الأخرى.

وفي الوقت الذي كان الموقع مهما بالنسبة لازدهار وشهرة عدن، إلا أنه كان نقمة عليها، فلقد أصبحت عرضة لغزوات الطامعين الراغبين في السيطرة عليها، وعلى الحركة التجارية وما تدره من أموال لمن يسيطر عليها.

كل ذلك أدى إلى ضرورة تحصين المدينة حماية لها، ولتجارقتها، وللتجار الذين يتاجرون معها، ولجعلها قادرة على الصمود أمام محاولات السيطرة عليها، فأصبحت واحدة من أمنع البلدان.



وتمثلت التحصينات الموجودة في عدن بنوعين: طبيعية وصناعية.

1.1 التحصينات الطبيعية :

أنشئت مدينة عدن على فوهة بركان حيث أحيطت بصورة طبيعية بالجبال الشاهقة الارتفاع بشكل حدوة الحصان، من الجهات الشمالية، والجنوبية، والغربية، أما الجهة الرابعة وهي الجهة الشرقية فقد تم استغلالها كميناء، وقد مثلت هذه الجبال التحصين الطبيعي الذي حل محل الأسوار التي تحيط بالمدن .

2.1 التحصينات الصناعية:

وهي التي قام ببنائها حكام عدن على مر العصور لتحسينها، وحمايتها من أي غزو قد تتعرض له، ومنها الأسوار- موضوع البحث -، والقلاع، والأبراج، والخنادق، والثكنات والبوابات.

2- الأسوار:

من خلال ما ذكرنا سابقا نجد أن لعدن أهميتها، ومكانتها التي جعلتها مطمعا لكل الطامعين؛ لذلك كان من الضروري أن يتم تحصينها تحصينا جيدا، حتى تكون قادرة على صد أي هجوم للاستيلاء عليها.

فكيف يمكن أن يتم تحصينها؟ من خلال دراستنا لها فهي محصنة طبيعيا بالجبال التي تحيط بها من الجهات الثلاث، فليس لها منفذ إلا من الساحل. وتكمن الخطورة في الجهة الشرقية لها تجاه الساحل، لذلك وجب على أهلها تحصين هذا المنفذ لحماية مدينتهم من أي هجوم، وبناء سور يمتد على طول الساحل الشرقي والذي يمثل نقطة الضعف للمدينة.

قام أهالي عدن ببناء سور على طول الساحل، ولم يكتفوا بذلك بل امتدت التحصينات لتشمل الجبال أيضا، وتم بناء الحصون، والقلاع، والأبراج، على رؤوس الجبال المحيطة بعدن، المشرفة على مدخلها البحري، والبري، لحراسة المدينة، ومراقبة السفن في الميناء، ورغم شهرة ميناء عدن القديمة إلا أنه لم تتوفر لدينا أية معلومات عن أول بناء لتحصينات المدينة وسورها البحري .

2-1 السور البحري:

أول من ذكر بناء سور بحري للمدينة هو المقدسي (ت380هـ/990م) [1]، الذي قام بزيارة عدن في عهد الدولة الزيادية في اليمن (204-412هـ / 819-1021م) [2]، في فترة حكم أبي الجيش إسحاق بن إبراهيم (291-371هـ/904-981م) [3]، وأقام بها عاما كاملا، وجاء ذكره لسور عدن على النحو الآتي: "ومدوا من نحو البحر حائطا من الجبل إلى الجبل فيه خمسة أبواب" [4]، فالمقدسي هنا يؤكد وجود سور بحري قد امتد من الجبل إلى الجبل، ووصفه بأن له خمسة أبواب، وربما كان هذا السور يعود إلى فترة أقدم بكثير من عهد المقدسي؛ لكن لم تتوفر لنا أية كتابات تؤكد وجود سور لعدن قبل هذه الفترة.

وتحدث عن هذا السور بعد المقدسي ابن المجاور الذي قام بزيارة عدن سنة 618هـ/1221م [5] ذكر فيما ذكره عن سور عدن بأن بني زريع (460-569هـ/1068-1173م) [6] هم أول من شاد سور عدن، وذكر أن هناك حادثة كانت السبب في بناء هذا السور.

والحادثة كما جاءت عند ابن المجاور هي: "انه قد أرسى مركبا قادما من المغرب إلى عدن في الليل، فنزل الناخودة من المركب، فدار عدن، فإذا هو بدار عاليتة، وبه شمع يقدر، وعود يبخر، فدق الباب فنزل الخادم ففتح له، وقال له: هل لك من حاجة؟ قال التاجر: نعم، فأستأذن الخادم له، فقال له صاحب الدار: يصعد، فصعد فسلم كل على صاحبه من غير معرفة، وجرى الحديث. فقال الناخودة: إني قدمت الليلة من المغرب، وأريد من إنعام المولى أن أخفي عنده بعض التحف. قال: ولم؟ قال: خوفا من الداعي. وقال له أقبل، ولا تخف من الظالمين، أنقل جميع ما معك إلى الدار الفلانية. فنزل التاجر، فصار البحارون ينقلون المتاع من المركب من الصناديق إلى الدار إلى أن أخلوا ثلثي ما في المركب. فلما أصبح الناخودة، وجد صاحبه البارحة الداعي بعينه، وقال في نفسه: خفت من المطر، ووقعت تحت الميزاب، وتشوش خاطره واسود ناظره. فأنفذ الداعي إليه، وقال له: أنا صاحبك البارحة، وأنا الداعي مالك عدن، اليوم طيب قلبك، واشرح صدرك. عشور مركبك هبت مني إليك مع الدار التي نزلت فيها، وهذه ألف دينار تنفقها ما دمت في بلادنا، وحرار علي أخذ شيء منك لا على وجه الهبة، ولا على وجه البيع والشراء. فقال له الناخودة: علام هذا كله؟ قال: لدخولك علينا البارحة منزلنا في نصف الليل، لأنه نبههم إلى أهمية الحفاظ على البلد، وتحسينها [7].

ويرجع الدكتور محمد كريم أن الداعي هو الأمير محمد ابن سبأ (535-548هـ/1140-1153م)، وهو ابن الداعي سبأ بن أبي السعود بن زريع مؤسس إمارة بني زريع في عدن، وأبنته عمران [8].

وحسب ابن المجاور، ونتيجة للحادثة التي أوردتها، فقد أمر الداعي أن يمد سور على الساحل، من الحصن الأخضر، إلى جبل حقات؛ لكنه كان سورا ضعيفا، ارتدم بعضه على بعض، نتيجة لارتطام أمواج البحر عليه، ومن ثم أدير عليه سور آخر من القصب، وكان مشبكا [9].

وبعد هذا السور تم تسوير المدينة بسور آخر قوي، من الحجر، والجص، في عهد الدولة الأيوبية في اليمن (569-626هـ/1173-1229م) [10] على يد عثمان الزنجيلي التكريتي، وهو أول نائب توران شاه بن أيوب على عدن، سنة 570هـ/1174م [11]، فقد قام الزنجيلي ببناء سور على الساحل، من سطح جبل الخضراء، إلى جبل حقات، وركب عليه ستة أبواب، ولم يكتف بذلك بل أضاف سورين آخرين، يمتد أحدهما من جبل

المنظر، إلى آخر جبل العر. وركب عليه باب حقات، ويمتد الثاني على رؤوس الجبال، من جبل الخضراء، إلى حصن التعكر[12].

وهنا نجد الاختلاف بين المقدسي، وابن المجاور في تحديد فترة بناء الأسوان فالمقدسي يؤكد وجوده في فترة حكم الدولة الزيادية (204 - 412هـ/819-1021م)، وابن المجاور ينسب بناء أسوار عدن إلى بني زريع (460 - 569هـ/1068-1173م)، ولربما كان هذا الاختلاف ناتجا لطول الفترة الزمنية بينهما، وهي فترة قد يكون تعرض خلالها السور للتهدم والتآكل، نتيجة لتلاطم أمواج البحر عليه التي سببت تآكل السور، خاصة وأن أمواج البحر كانت تصل إلى أعلى درجات أبواب السور عند ازدياد الرياح، واضطراب البحر [13]، وهي الأسباب نفسها التي قد تكون هدمت السور الذي بناه بنو زريع.

وكما تضطرب المعلومات عن بناء السور؛ فإنها تضطرب عن عدد أبوابه، وموقعها منه، فالمقدسي ذكر بأنها خمسة أبواب، بينما ابن المجاور يذكر أنها ستة أبواب، ويتفق بامخرمة (ت 937هـ) [14]، مع ابن المجاور في عدد الأبواب [15]، إضافة إلى اختلاف أسمائها في الفترة الواقعة بين ابن المجاور و بامخرمة [16].

2-1-1 أبواب السور البحري

أ- باب الصناعة :

يذكره ابن المجاور و بامخرمة - وإن اختلفا - فابن المجاور يسميه الصناعة، بينما بامخرمة سماه بالصباغة، وإذا صح ما توقعه الأستاذ عبد الله محيرز بأن الصحيح هو الصناعة، فقد يكون في الأمر تصحيحا.

ب- باب حومة :

ذكر ابن المجاور و بامخرمة بأنه باب يخرج منه السيل عند نزول الغيث، فربما كان يقع عند نهاية امتداد السائلة القادمة من صهاريج الطويلة إلى البحر.

ج- باب السكة :

ذكر هذا الأسم عند ابن المجاور، بينما هو باب السيل عند بامخرمة، كما يذكر أنه يعرف بباب مكسور لأن السيل يكسر في كل دفعة، وهو باب آخر يخرج منه السيل أيضا .

د- باب الفرضة :

ذكره كل من ابن المجاور، و بامخرمة، وهو الباب الذي تدخل البضائع عبره من الساحل إلى الفرضة. وقد ذكره الجرهمزي فيما جاء عن إدخال بعض البضائع التي جلبتها السفن الهندية إلى ميناء عدن : " لم يسعها باب الفرضة، وإنما أخرجوها من باب الساحل " [17]. إذا فباب الفرضة أصغر حجما من باب الساحل.

هـ- باب مشرف :

ذكره ابن المجاور بأنه كان يبقى مفتوحا للدخول، والخروج، وأصبح يعرف بباب الساحل في أيام بامخرمة، وهو أكبر أبواب السور، وأوسعها، وقد يكون هو نفسه حسب تسمية جان دي لا روك الذي زار عدن سنة 1119هـ/1708م بالبواب البحري الرئيس، ووصفه بأنه باب سميكة للغاية وهو مليء بأوتاد من الحديد مشدودة من الخلف لمزيد من الأمان بدثار معدني متناسب مع سائر الأجزاء " [18].

و- باب حيق :

ذكر ابن المجاور بأنه باب يبقى مغلقا، ويذكر بامخرمة بأنه أصبح يعرف في أيامه باسم باب السر، وأنه لا يفتح إلا عند وجود شيء مهم ، وحدد موقعه بأنه يقع بالقرب من

جبل النوبة قليلا، وهي تسمية أخرى لجبل المنظر. إذاً : فالباب يقع في النهاية الجنوبية من السور؛ لكن بالرغم من اتفاق كل من ابن المجاور، وبامخرمة على عدد أبواب سور عدن البحري إلا أن هذا العدد لم يظل على ما هو عليه، فقد تناقصت أبواب السور، وربما كان ذلك نتيجة لعدم مقدرة حكام عدن في بعض الفترات من ترميم السور، وعدم وجود الجنود الذين يستطيعون الدفاع عن هذا العدد من البوابات، فكان من الأفضل إغلاقها، واقتصار الأمر على عدد أقل منها.

وفي سنة 1018هـ/1609م وصف جون جوردين عدن بأنها مكان حصين، ممتنع، وأنها محاطة بسور ذي ثلاثة أبواب مغلقة، جعل الباب الأكثر تعرضاً من بينها للغزو من القلز[19]، وهو سهل الإنزلاق عند الطلب [20].

ووصلت الحال بالسور في سنة 1251هـ / 1835م عند زيارة ولستد لعدن أن غطت الرمال أجزاء كبيرة منه، ووصلت إلى قمته، فأصبح من يريد دخول المدينة يستطيع أن يختار أن يصعد عليه بتسلق الرمال، أو أن يدخل عبر إحدى بوابتيه، والتي كانت إحداها باب العشور[21]. ويذكر بأنها كانت دائما مغلقة، وربما كانت هي باب السر، وأن العشور هي كلمة محرفة للسر.

ويتردد سؤال مهم .. أين يقع سور عدن البحري، بأبوابه، وفرضته، والذي تحدث عنها مجموعة من المؤرخين، والرحالة، والذي أظهرته بعض الرسوم التي رسمت للمدينة في الفترة ما بين القرنين 16 - 18م ؟

فالمعروف أن الكابتن (هينز) قام بذكر السور كاملا، وبقايا منشأته، وقام بكبس موقعه، وحوّله إلى ثكنات، ومعسكرات لجنوده[22].

إذاً : فالمنشآت الموجودة على ساحل عدن حاليا هي عبارة عن منشآت تم إنشاؤها على أنقاض سور عدن، بعد كبس الساحل، وبناء منشآت أخرى عليه سنة 1256هـ / 1840م[23].

وعليه فقد تقدم موقع الساحل إلى الشرق كثيرا نتيجة لعمليات الكبس المتتالية للساحل.

إذا : كيف يمكننا معرفة الموقع التقريبي للسور؟؟؟

فالمقدس يذكرونهم قد مدوا نحو البحر حائطا من الجبل إلى الجبل - أي من جبل الخضراء، إلى جبل حقات - ويؤكد ذلك ابن المجاور، فيذكر لنا أن موقع السور يقع ما بين الصناعتة[*]، وجبل حقات.

وأخيرا يأتي بامخرمة، فيذكر أنه يقع على الساحل، ابتداءً من لحف جبل الخضراء، إلى جبل حقات . إذاً : فالسور يقع على ساحل المدينة، ممتداً من جبل الخضراء شمالا، نحو جبل حقات جنوبا. ومما يتوفر من الرسوم التي رسمت للمدينة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، والتي يظهر بها سور المدينة البحري فإننا نستطيع التأكد من أنه يبدأ من منتصف جبل الخضراء، إلى جبل حقات.

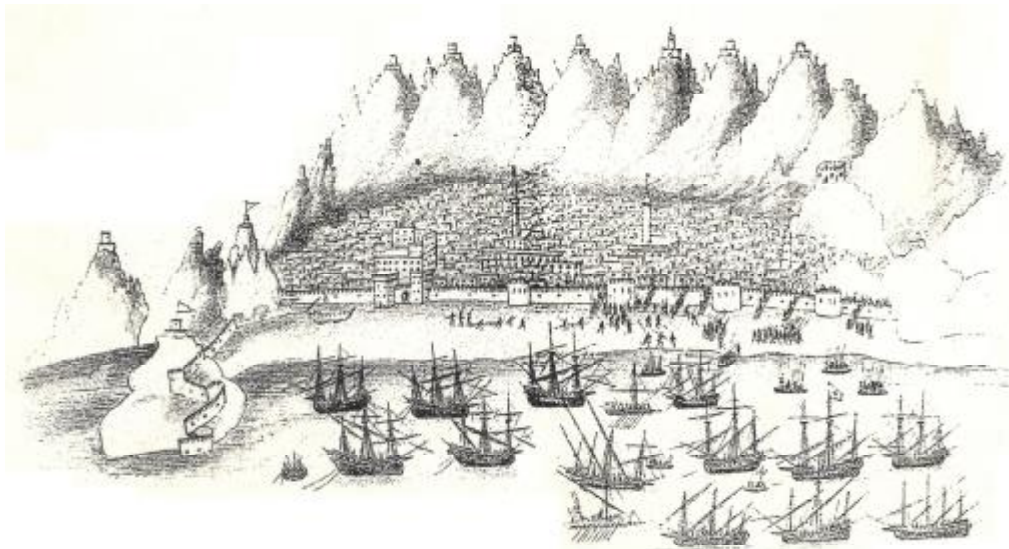
وحسب أرضية المدينة، وعلى أساس أن أرضية المدينة يجب أن تكون منحدره من الجبال نحو الساحل فإننا نلاحظ وجود ارتفاع نسبي لأرضية جزء معين من المدينة أمام الساحل، وهي المنطقة التي بني عليها قصر البراق، والداخلية سابقا إلى جبل حقات، فربما كان هذا موقعا لجانب من منشآت السور التي تم البناء على أنقاضه؛ والرسم البريطاني للساحل والمنشآت التي عليه، والذي يعود لسنة 1264هـ / 1845م، يظهر لنا أنه قد تم بناء بعض المباني على تل صغير أمام الساحل.

وحسب المعطيات السابقة فقد قامت الباحثة بالبحث على الجانب الجنوبي من جبل الخضراء، شمال الموقع الذي قام الكابتن هينز ببناء ثكنات لجنوده عليه وهو ما يعرف حاليا بثانوية لطفي حيث توصلت الباحثة إلى وجود جدار ملتصق بالجبل يبلغ حجمه ما تبقى منه 3م عرضا، و2م ارتفاعا، حيث كان الارتفاع الأصلي لهذا الجدار يصل إلى 9م، ويتضح ذلك من بقايا المونمة على الجبل.

كما يتضح لنا من الرسوم التي رسمت لسور عدن أنه عبارة عن منشأة دفاعية ضخمة، دعمت بمجموعة من الأبراج نصف الدائرية، والمربعة على امتداده، يكتنف بعضها أبوابه من الجانبين، كما كان يحتوي على ممشى عريضا بما فيه الكفاية لوضع المدافع عليه، وللمشى جدار ساتر ذي شرفات مسننة تحمي المحاربين الواقفين خلفها، وكان يتخلل السور، والأبراج مجموعة من المزاعل، إذ يصفه دن بروكه بالقول: "المدينة مزودة بسور حصين على الجانب البحري، عليه العديد من المدافع المعدنية الصغيرة، والمدافع الحديدية ذات القنابل الحجرية" [24]، كما كان سورا عالي الارتفاع؛ ويتضح ذلك خلال المحاولة البرتغالية لاحتلال المدينة في سنة 919هـ/1513م، فقد استخدموا السلاالم للوصول إلى أعلى السور، واقتحام المدينة [25]؛ أما من وصل منهم إلى أعلى السور، لم يستطيعوا أن ينزلوا عنه بعد هزيمتهم، نتيجة لتحطم بعض السلاالم، ولحيازة أهل عدن على ما تبقى منها [26]. ونتيجة لعدم قدرتهم على القفز لعلو السور، فمنهم من تزلزل نزولا بالجبال، ومنهم من قام بالقفز، فتحطمت أرجلهم [27].

ولعل في وصف النهروالي لمناعة المدينة، وارتفاع أسوارها شيء من المبالغة، إلا أنها قد تعطينا تصورا لمدى ارتفاعها، " فإذا بأسوارها أبعد من الثريا، وطراز حصونها يستعير من الجوزاء حليا، كأن الغمامة لها عمامة، والهلال من أظفر أنملتها قلامت، تناطح في العلو والشهوق قرني الشمس عند الشروق، وتنفوت الرعود، والبروق فوق السها، والعيوق، لا ينضد فيها سهام الحدثان، ولا يطمث عذرة قلاعها إنس ولا جان" [28].

ومن العناصر الدفاعية التي احتوى عليها السور كان "الباشورة" [29]، حيث تذكر المصادر التي تحدثت عن الحملة البرتغالية أن مجموعة من البرتغاليين قد حوصروا في الباشورة، وقد أمر الأمير مرجان الظافري أن يرمى فيها قسبا محترقا لإرغام من فيها على الخروج [29]. (صورة: 2)



صورة ٢: المحاولة البرتغالية لاقتحام السور البحري

وقد تعرض سور عدن للتخريب في عهد الدولة الظاهرية، بعد المحاولة المملوكية للسيطرة على عدن سنة 922هـ/1516م، فقد خربت مدافعهم الجانب الجنوبي من السور، وأمر الشيخ عبد الملك بن عبد الوهاب شقيق الملك الظاهري عامر بن عبد الوهاب بعمارة ما تخرب من السور فعمر عمارة قوية سنة 922هـ/1516م [30]. كما قام الصفي أحمد بن الحسن بالنزول إلى عدن في 1070هـ/1659م لترميم استحكامات عدن، فكان أول ما قام به ترميم سور عدن البحري، " فأول ما عمر من الدوائر، الدائر المتصل بالساحل، مما يلي البحر، نحو من نصف ميل" [31].

إلى جانب سور الساحل، فإن كلا من ابن المجاور، وبامخرمة، يضيفان سورين آخرين بناهما الزنجيلي، سور جنوبي يمتد من جبل المنظر إلى جبل العر، وشمال يمتد من جبل الخضراء على رؤوس الجبال إلى جبل التعكر [32].

2.2- السور الجنوبي: (صورة : 3)



وهو السور الذي قام ببنائه عثمان الزنجيلي ليحمي المدينة من جانبها الجنوبي، يمتد من جبل المنظر شرقاً، نحو جبل العر غرباً، وقد ركب عليه باب حقات [33]، ويخرج منه إلى ساحل، وخليج حقات الذي كان يستخدم كميناء احتياطي في الفترات التي تشد بها الرياح حيث يتم إنزال البضائع فيه، ويتم إدخالها إلى المدينة عبر بوابتها الجنوبية. يبلغ عرض جدار السور الجنوبي حوالي 0,70م، يرتفع بحوالي 1,20م.

ويتقدم الجهة الشمالية من جدار السور ممشى خاص بالجنود، ويتراوح عرض هذا الممشى ما بين 2م إلى 3م، ويلاحظ أنه لتحصين السور تم تسوية الجانب الجنوبي من الجبل أسفل جدار السور، إلى جانب حفر خندق أسفل الجدار من الجهة الجنوبية، حتى لا يقوم احد بالتسلق إلى أعلى السور، واقتحام المدينة من هذا الجانب، بحيث تتراوح المسافة من أعلى نقطة في السور إلى الخندق ما بين 7 - 10م.

2.2- 1 بوابة حقات : (صورة : 4)



وهي عبارة عن بوابة ضخمة، حضرت في الجبل نفسه، كانت تتسع لمرور عربية واحدة، يعلوها جسر بني على قنطرة يصل بين جانبي البوابة من الأعلى تسهل حركة الجنود الموجودين عليها، ولا زالت آثار بقايا الطريق التي كانت توصل بين جانبي البوابة موجودة في الجانب الغربي من

الطريق، بينما أزيل الجانب الشرقي منه عند تحطيم البوابة وتوسعة الطريق.

ويبلغ عرض ما تبقى من الجسر 3م، وقد كانت البوابة محمية بخندق يتم السير عليه فوق جسر خشبي متحرك [34] كان يتم إنزاله ورفع بحبال سميكة تشد بواسطة جملين [35] ويتم إغلاق البوابة في الساعة السادسة من مساء كل يوم لمنع عمليات تهريب البضائع [36]. وقد تم تحطيم البوابة وتوسعتها من قبل سلطات الاستعمار البريطاني وربما كانت هذه التوسعة متزامنة، والتوسعة التي شملت باب عدن الشمالي - العقبة - حيث يبلغ اتساع بوابة حقات حالياً 12م.

ويظهر هذا السور في بعض الرسوم التي رسمت للمدينة، وقد تم بناؤه ليحمي المدينة من الجنوب في المنطقة غير المرتفعة من الجبل، ويبدأ امتداده من جبل المنظر شرقاً من الجزء الذي يقع جنوب غرب منازل الصيادين الموجودين على الساحل قبالة جزيرة صيرة، ليصل إلى جنوب جبل العرف في الجزء المرتفع من الجبل أعلى مقبرة القطيع.

وقد عزز السور الجنوبي بحصن وأبراج وشكنته عسكرية لازالت بقاياها شامخة إلى يومنا هذا، إلى جانب إن جبل المنظر كان موقعا لأحد أشهر القصور في المدينة، ألا وهو قصر المنظر، وهو القصر الذي يذكر ابن المجاور أن المعز إسماعيل بن طفتكين الأيوبي هو من بناها، بينما يذكر بامخرمة أن المعز قد جدد بناءها، وأن سلاطين آل زريع كانوا يسكنون فيها، ويظهر أن هذا هو الرأي الأرجح حيث يؤكد الجندي (ت 732هـ) بأن الوزير بلال بن جرير المحمدي [***] قد استقبل محمد بن سبأ الزريعي، وأنزله في المنظر.

3.2 - السور الشمالي:

وهو الذي تم بناؤه من قبل عثمان الزنجيلي على رؤوس الجبال بدءاً من الجبل الأخضر، وحتى جبل التعكر، كما ذكر بامخرمة بأنه يبدأ من حصن الخضراء، إلى حصن التعكر، ويؤكد أنه على رؤوس الجبال [37].

يؤدي السور دوراً في الدفاع على المدينة من الجانب البري، والشمال الشرقي، ومن الملاحظ أن جبل الخضراء مرتفع بحيث لا يحتاج لوجود السور عليه؛ إلا أن وجود بعض نقاط الضعف المتمثلة بوجود بعض المواقع المنخفضة في الجبل قد تشكل خطراً على المدينة استوجب بناء السور في هذا الموقع.



ولازالت آثار بقايا السور واضحة، ويتراوح عرض السور في هذه الأجزاء ما بين 1م و 1,50م، وقد تهدمت أجزاء كبيرة من السور بحيث لا يوجد في بعض الأماكن سوى بعض الآثار التي تشير إلى موقعه. (صورة: 5 الدروب) وهذه الدروب التي اشير إليها ضمن الحديث عن دخول الملك المجاهد الرسولي إلى عدن، واستيلائه عليها في عام 72هـ/1328م: "أنه قد بات في حصن التعكر. وفي الصباح نزل منه، وسار إلى حصن الخضراء عبر الدرب" [38].

وقد عزز هذا السور بمجموعة من القلاع، والأبراج على طولها إلى جانب بوابتين منفصلتين يدخل منهما إلى السور من داخل المدينة، إلى جانب البوابة الشمالية التي

عرفت بباب البر، وباب السقايين، وباب العقبة، وقد انتبه البوكريك إلى شدة هذه التحصينات خلال الجولة التفقدية التي قام بها حول شبه جزيرة عدن قبل أن يشن الهجوم على المدينة. (صورة 6: البرج)



3.2-1 باب البر:

تعد البوابة الرئيسية لمدينة عدن من البر، وهي التي دخلت ضمن أملاك العباس بن المكرم في القسمة بينه، وبين أخيه المسعود [39]، فلم يكن من دخول إلى عدن قبل إنشاء هذه البوابة إلا من الجانب البحري؛ أما بالنسبة لمن أراد الدخول إليها برا فكان عليه أن يصعد فوق الجبال .

وكان هذا هو الحال حتى تم شق الباب في هذا الموقع من الجبل، ونستدل على ذلك بما ذكره الهمداني في سياق حديثه عن عدن بالقول: "ساحل يحيط به جبل لم يكن فيه طريق، فقطع في الجبل باب بزبر الحديد، وصار لها طريق إلى البر ودريا" [40].

إذا: شق في الجبل مدخلا للمدينة، وجعل له بابا من الحديد، ويذكره الهمداني ضمن عجائب اليمن التي ليس في بلد مثلها، ووصفه بالقول: "هو شصر [41] مقطوع في جبل كان محيطاً بموضع عدن من الساحل، فلم يكن لها طريق إلى البر إلا للرجل لمن ركب ظهر الجبل، فقطع في الجبل بابا بلغ عرض الجبل حتى سالكته الدواب والجمال والمحامل والمحضات" [42].

وهو ما يؤكد المقدسي: "وقد شق في هذا الجبل طريقا عجيبا وجعل عليه بابا حديدياً" [43].

وتفيد بعض المصادر أن الملك الناصر الرسولي بدأ بعمارة بوابة إضافية لباب عدن في 809هـ / 1464م وسمي بباب الزيادة [44].

كما عرف باب عدن أيضا بباب البرود، جاءت هذه التسمية لدى بامخرمة عند ذكره لدخول الملك الطاهري الظافر عامر بن طاهر في سنة 858هـ [45].



صورة ٧: تحصينات باب البر (العقبة)

كما زار عدن أحد الضباط المرافقين لسليمان باشا الأناطلي في هجومه على عدن سنة 944هـ / 1538م في عهد الدولة الطاهرية، وجاء في وصفه للمدينة: "والمدينة حصينة جدا واقعة فوق البحر تحيط بها جبال شاهقة، وقلاع، ودروب؛ إلا من فتحه طولها 300 خطوة، تصل بين البلد والساحل عليها بوابات متينة،

وقلاع ودروب حصينة" [46]. (صورة : 7

تحصينات باب البر)

كما وصف جون جوردين البوابة قائلاً: "والمدينة محصنة بجدار قوي حولها، ولها ثلاثة بوابات حصينة: واحدة في الجانب الشمالي، بحاجزين بقضبان حديدية متشابكة، ينزل، ويرفع حسب الطلب، بينهما بابان من الخشب، مسمرة بأضخم ما يوجد من المسامير" [47].

وفي فترة حكم علي بن سليمان الطولقي مرت بعدن بعثة تبشيرية أثناء ذهابها إلى الحبشة، وقد وصف كاتبها باب عدن البري بالقول: "وفي الناحية الأخرى باب يؤدي إلى البر، ويبدو أنه حفر بالأيدي في الصخور، ويبلغ عمقه مائة قامة، وتقف عليه ثلاثة بوابات تفتح الواحدة تلو الأخرى في الصباح، وتفضل في الليل، يبلغ ارتفاعها ما بين 12-14 ياردة، وعلى البوابة عقد يمتد من صخرة إلى أخرى رتب عليه مائة جندي لحراستها، فلا يدخل ولا يخرج منها أحد بدون أمر رسمي" [48].



أما في الفترة التي سبقت الاحتلال البريطاني لعدن فقد وصف ولستد البوابة سنة 1835م بالتالي: "وبعد صعود طريق حجري شديد الانحدار طوله 400 قدم وصلنا إلى نقطة حيث تقع فيها أول البوابات". ويرى ولستد أن هذا الممر قد تم توسيعه باليد، فقد كانت آثار الأزاميل واضحة على جدران الصخرية، كما أنه رأى دعامتين من الحجر على جانبي الممر، وبعض الخشب هي ما تبقى من حاجز، وعلى بعد عدة ياردات وجد أن الممر قد سد ببرج مربع، على سقفه قطعتين من سلاح المدفعية، والحراصة دائمة عليه، ويرجع بناء البرج إلى الأتراك، ويصف حالته بأنه آيل إلى السقوط، وقد استخدم البرج من قبل الإنجليز في بداية حكمهم لعدن.

ولم يتبق من باب البر إلا الحصن الموجود على جانبي البوابة من الأعلى (صورة 8: حصن باب البر)، وهو الجزء الواقع على درب حوش، وجانب من جبل التعكر وقد كانا يتصلان فيما بينهما بجسر معلق.



وهو عبارة عن جسر حجري محمول على قنطرة ذات عقد نصف دائري، تحمل ممرا يكتنفه جدران ساتران، زودا بمزاغل مستطيلة الشكل رأسية عددها اثنا عشر مزغلا في كل من جانبيه، سواء المطل على مدينة عدن، أو الجانب المطل على خارج المدينة، وعلى جانبي كل جهة منه فتحتان معقودتان، ربما كانت تستخدم لتصريف مياه الأمطار، وقد تم تحطيم الجسر في 17 إبريل 1963م [49] لتوسعة الطريق المارأسفله. (صورة 9: تفجير الباب)

4.2- السور التركي:

يتمد جنوبا من أسفل حصن القفل إلى راس الجارف ومن راس الجارف، ثم إلى راس العرق، عبر البرزخ الذي يفصل شبه جزيرة عدن عن البر اليمني، ويمثل البرزخ منطقة

ضعف للمدينة إذ يمكن لمن يتسلل عبره إلى درب حوش أن يدخل إلى المدينة من خلف بابها البري؛ كما توجد بعض المواقع في جبل المنصوري، قليلة الارتفاع والتي قد يستغلها المهاجمون للدخول إلى المدينة لذلك وجب تحصين المدينة من هذا الموقع فتم بناء هذا السوركتحصين بري متقدم.

وقد أدرك الملك المؤيد ضعف الموقع، واستغله لدخول عدن، حيث توجه إلى عدن برفقة أخيه، وتأملها فرأى في بعض نواحيها دربا ضعيفا متشعثا.

ويفيد الخزرجي أنه طلب صيادا من الذين يصطادون قريبا منه، وسأل عن الجبل والمسالك التي تؤدي منه إلى باب عدن وهل هي سهلة أو ممتنعة فأفاد الصياد أن فيه طريقا يصل منه الإنسان إلى باب عدن، وبإمكانه إرشادهم إليه، فجمع له قوة من ثلاث مائة من أجود رجاله ووجههم ليسيروا مع الصياد، وطلب أن لا يظهر حتى يروا الملك أقرب منهم إلى الباب، والهدف من هذا أن تنزل هذه القوة وتضاجئ عساكر المدينة من خلفهم بأن يعتلوا قمة الجبل الذي يعلو الباب من درب حوش، فنجحت الحملة، وخدع والي عدن بأن ركز حراسته الباب دون قمع التلال المجاورة، وأطل عليه رجال المؤيد من عل، وصاحوا بهم من رأس الجبل، فضوجئ عسكر الوالي، وهربوا إلى داخل المدينة، ونزل رجال المؤيد، وفتحوا الباب له، وأمتلك المدينة [50].

والسور بحالته الحالية عبارة عن تحصين إنجليزي، فقد كانت أولى أهداف الكابتن هينس بعد احتلاله للمدينة أن يقيم تحصينات دفاعية مؤقتة تكون قادرة على صد أي هجوم مفاجئ، فأنجز بصورة سريعة خط دفاعي على أنقاض ما أسماه بالدرب التركي [51]؛ حيث قام بحفر خندق على الخط القديم " درب الحربي " [52].

وهكذا وقع البرزخ تحت طوق كبير من التحصينات يعززه خندق عميق، ومعقل، وحصون بزوايا بارزة، وحجرات حصينة، ومدججة بالمدافع، ويقسم راس الجارف هذا الطوق إلى شطرين، وعبره حفر ممر تحت الأرض لضمان الإمدادات، والاتصالات [53].

عرف السور بدرب الحربي، والذي لا يستبعد الأستاذ عبد الله محيرز أنه قد يكون من أحد الأعمال الإنشائية التي قام بها الوزير صالح بن علي الحربي اليمني، صاحب الحجرية [54]، وقد ترجم له زيارة في كتابه، وجاء فيها بأنه قد قام بمجموعة أعمال إنشائية، وعسكرية إلى جانب إدارته لبعض ثغور اليمن [55]، وهو ما اعتمد عليه محيرز في استنتاجه لأصل التسمية.

وقد أسماه الإنجليز ابتداء من الكابتن هينس بالدرب التركي اعتقادا منهم بأنه قد تم بناؤه من قبل الأتراك [56].

3- الخلاصة:

أشتهرت عدن نتيجة لموقعها الاستراتيجي كواحدة من أهم موانئ العالم القديم، ولا زالت تحظى بأهميتها حتى يومنا هذا، ذكرت في الثورة وفي النقوش القديمة واسمي خليج عدن تيمنا بها، حرص التجار على التجارة في أسواقها، ووجدت السفن الملاجأ بين جبالها، وحرصت الدويلات اليمنية على أن تكون عدن تحت سيطرتها، نظراً للدخل الكبير الذي يجنوه من مينائها؛ نتيجة لتحصيل الضرائب الجمركية، والذي يمثل أكبر المبالغ التي تصل إليهم من بقية الموانئ الأخرى.

وفي الوقت الذي كان الموقع مهما بالنسبة لزهارة وشهرة عدن، إلا أنه كان نقمة عليها، فلقد أصبحت عرضة لغزوات الطامعين الراغبين في السيطرة عليها، وعلى الحركة التجارية وما تدره من أموال لمن يسيطر عليها.

كل ذلك أدى إلى ضرورة تحصين المدينة حماية لها، ولتجارها، وللتجار الذين يتاجرون معها، ولجعلها قادرة على الصمود أمام محاولات السيطرة عليها، فأصبحت واحدة من أمنع البلدان.

4- التوصيات:

- 1- إعلان عدن محمية تاريخية لما تحتويه من معالم أثرية وتاريخية وأحياء قديمة.
- 2- الاهتمام بآثار مدينة عدن وتوثيقها.
- 3- ترميم آثار المدينة ترميماً علمياً يحفظ لها هويتها.
- 4- وقف العبث في معالم المدينة تحت مسميات الحداثا والتحديث.
- 5- التعريف بآثار عدن وفتح المغلق منها أمام السياحة الداخلية والخارجية.
- 6- إنشاء شرطة الآثار المتخصصة لحماية وحراسة المواقع الأثرية.

الحواشي والمراجع:

- [1] المقدسي. شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد أبي بكر الشامي المقدسي المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ط2، 1967م، ص94.
- [2] الحداد. محمد يحيى. التاريخ العام لليمن التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي منذ بداية تاريخ اليمن القديم وحتى العصر الراهن، ج2، منشورات المدينة، ط1، 1986م، صنعاء، ص97.
- [3] الحداد. محمد يحيى، المرجع نفسه، الجزء نفسه، ص99.
- [4] المقدسي. المصدر نفسه، ص85.
- [5] ابن المجاور. جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب ابن أحمد ، صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز المسماة تاريخ المستبصر ، تصحيح لوفقرين ، منشورات المدينة ، صنعاء ، ط2، 1968م، ص267.
- [6] الشمري. محمد كريم إبراهيم ، عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية 467 - 627هـ م 1083 - 1229م ، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ، عدن . ط2 ، 2004م، ص139.
- [7] ابن المجاور. المصدر السابق، ص127-128.
- [8] إبراهيم. محمد كريم، إنجازات الأيوبيين في تشجيع وحماية التجارة في ميناء عدن 569-631هـ ، مجلة التراث ، العدد الرابع ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، عدن ، مارس 1992م، ص44، هامش 32.
- [9] ابن المجاور. المصدر السابق، ص128.
- [10] الشمري. المرجع السابق، ص191.
- [11] إبراهيم. محمد كريم، الإنجازات العمرانية لثانبي بني أيوب في عدن ، مجلة المنارة ، العدد الخامس ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، عدن ، يونيو 1992م ، ص27.
- [12] ابن المجاور. المصدر السابق، ص128.
- [13] ابن الديبع. عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر ابن الديبع. الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، تحقيق يوسف شلحد ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء، 1983م، ص310. بافقيه . محمد بن عمر ، تاريخ حوادث السنين ووفاة العلماء العالمين والسادة المربيين والأولياء الصالحين المعروف بـ " بافقيه الشجري " ، دراسة وتحقيق أحمد صالح رابضه ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، كلية الآداب ، جامعة عدن ، 2000م، ص76.
- [14] بامخرمة . أبي محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد ، تاريخ ثغر عدن مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندي والأهدل ، منشورات المدينة، بيروت ، ط2 ، 1986م، ص12.
- [15] ابن المجاور. المصدر السابق، ص128.
- [16] المصدر نفسه، الصفحات نفسها. بامخرمة. المصدر السابق، ص12.
- [17] محيرز عبد الله أحمد ، صيرة أبحاث متعمقة عن بعض معالم عدن الاقتصادية والعسكرية ، مطبعة جامعة عدن ، ط1 ، 1999م، ص30.

- [18] دي لاروك . جان، اول رحلة فرنسية إلى العربية السعيدة 1708 - 1710 و 1711- 1713 م، ترجمة منير عريش ، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ، صنعاء، ص35.
- [19] القلز: هو النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد . المنجد في اللغة والأعلام، دارالمشرق، بيروت، ط 28، 1986م، ص 650.
- [20] بيري . جاكين ، اكتشاف جزيرة العرب ، ترجمة قدرى قلعي ، دارالكتاب العربي ، بيروت، ص73.
- [21] Wellsted. Lieutenant J. R. Travels in Arabia, Vol 2, Akademische Druk, U. Verlags zntant, Graz , Austria, 1978, P389.
- [22] Doe. Brian, Southern Arabia, Thames and Hudson, first published, Switzerland, 1971, P125.
- [23] محيرز المرجع السابق، ص22.
- Ancient Capitals from Aden, Arabian studies, No 1. P176.
- [*] يوضح الأستاذ محيرز بأن الصناعة هو موقع على الميناء لإصلاح السفن وبناءها ، ويقع بالقرب من جبل الخضراء قرب باب الصناعة . محيرز . صيرة ، ص 29.
- [24] براور . ك . خ . وآ . كبلانين . اليمن في أوائل القرن السابع عشر . مركز عبادي للدراسات والنشر ، ط3 1998م، ص73.
- [25] ابن الديبع، المصدر السابق، ص345. بافقيه. المصدر السابق، ص87-88. دلبوكريك. أفونسو، السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكريك ، ترجمة د . عبدالرحمن عبدالله الشيخ ، منشورات المجمع الثقافي ، أبوظبي ، 2000م.
- [26] ابن الديبع. المصدر السابق، ص345. دلبوكريك. المصدر السابق.
- [27] دلبوكريك. المصدر نفسه.
- [28] النهروالي. قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي . البرق اليماني في الفتح العثماني (تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري مع توسع في أخبار غزوات الجراكسه والعثمانيين لذلك القطر) ، ط2 ، منشورات المدينة ، بيروت ، 1986م، ص251.
- [*] الباشورة: أو المدخل المنكسر هو عبارة عن تصميم خاص بمدخل الأبنية الحربية والمدنية يقضي برفع جدار يواجه الداخل مباشرة ويفرض عليه الانعطاف يمينا أو يسارا من خلال ممرات ضيقة، كان الغرض منه في الأبنية الحربية إعاقة المهاجمين واستحالة دك البوابات ومنع استخدام أدوات الحصار الأخرى كالسلاخ وغيرها. رزق. عاصم محمد ، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2000م، ص 270.
- [29] بامخرمة. أبي محمد عبدالله الطيب بن عبدالله بن أحمد، قلادة النحر في وفيات الدهر ، دراسة وتحقيق محمد يسلم عبد النور ، رسالت ماجستير (غير منشورة) ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، 2003م، ص769.
- [30] بامخرمة . المصدر نفسه، ص779.
- [31] محيرز صيرة، ص28.
- [32] ابن المجاور المصدر السابق، ص. بامخرمة ثغر عدن، ص .
- [33] بامخرمة. ثغر عدن، ص14. ابن المجاور المصدر السابق، ص128.
- [34] Doe. Brian, South Arabian Notes, No. 2, August, 1967, The Department of Antiquities, Aden, p6.
- [35] مقابلة شخصية أجرتها الباحثة مع المرحوم السيد/عبدالعزیز عبدالقادر مكاوي بتاريخ 2005/4/15م.
- [36] Doe. Brian, Southern Arabia, Thames and Hudson, first published, Switzerland, 1971, p125.
- [*] كان وزيراً للداعي محمد بن سبا في الفترة 534-546هـ / 1151-139م . الشمري. المرجع السابق ، ص 154.
- [37] ابن المجاور المصدر السابق، ص128. بامخرمة. ثغر عدن ، ص 14.

- [38] الخزرجي. علي بن الحسن ، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، تصحيح محمد بن علي الأكوغ الحوالي ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ط2 ، 1983م ، ج2 ، ص48.
- [39] عمارة. نجم الدين عمارة بن علي اليمني ، تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها ، تحقيق محمد بن علي الأكوغ الحوالي ، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع ، صنعاء ، ط3 ، 1985م ، ص140. ابن المجاور المصدر السابق ، ص 121.
- [40] الهمداني. الحسن بن أحمد بن يعقوب ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوغ الحوالي ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، 1990م ، ص94.
- [41] شصر: شصر فلانا بالرمح طعنه. المنجد ، ص386.
- [42] الهمداني. الصفة ، ص307.
- [43] المقدسي . المصدر السابق ، ص85.
- [44] محيرز عبد الله أحمد ، العقبة ، دراسة تحليلية جغرافية وتاريخية لجانب من مدينة عدن ، مؤسسة 14 أكتوبر للصحافة والطباعة والنشر ، عدن ، د . ت ، ص120.
- [45] بامخرمة. قلادة ، ص681.
- [46] محيرز العقبة ، ص122.
- [47] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
- [48] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
- [49] المرجع نفسه ، ص125.
- [50] الخزرجي. المصدر السابق ، ج1 ، ص239.
- [51] بلايفير. إف. إل. تاريخ العربية السعيدة ، ترجمة سعيد النوبان ومحمد علي باحشوان ، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ، عدن ، ط1 ، 1999م ، ص163.
- [52] يعقوب. هارولد. ف. ملوك شبه الجزيرة ، ترجمة أحمد المضواحي ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، 1983م ، ص43.
- [53] بلايفير . المرجع السابق ، ص22.
- [54] محيرز العقبة . ص78.
- [55] زيارة . محمد بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن الحسين بن أحمد زيارة الحسن الصنعاني ، تقريظ نشر العرف لبلاء اليمن بعد الألف إلى سنة 1357هـ ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، د . ت ، ص771.

[56] Kour. Z. H, The History of Aden 1839 – 1872, p13-14.